رسائل في سبيل الاصلاح

-٣-

دمشق

بعد (٩٠) عاماً

« ماذا يكون يومئذ اذا لم نبادر
الى الاصلاح »

بقلم

محمد علي الطنطاوي

مطبعة الترقي بدمشق ١٣٤٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة على رسله وانبيائه

— كلمة صغيرة —

اخرجنا رسالتينا ولا نقصد منهما الا الاصلاح ، ولكن حدة الشباب ، وطموحه ، وقوة الأمل والساعة ، كل اولئك كان له آثره في الرسالتين ، وما أثره الا شدة الصراحة احيانا والقساوة في الحكم احيانا ،.. وهذا مما نحاول الآن ان نعتذر منه الى من نالهم اذاه.

وما اصل الفكرة ، ومركز الرأي ، فلا نزال عليه لاعتقادنا هو الصواب ، وسرعان ما ننزل عنه ان ظهر الحق في غيره ، والحق احق ان يتبع ، وغفر الله لأمرئ ظن بنا خيراً ، او سكت

دمشق ٢٠ رجب ١٣٤٨ ع الطنطاوي

اخرج هذا الطنطاوي أولى رسائله فأغضبت وارضت ثم قفّى على اثرها بالثانية فلم تدع راضياً عنه احداً ، ولم يدع الناس لفظة في دواوين اللغة تدل على الانتقاص والشتيمة ، الا رموه بها غيبة وحضوراً ، حتى بعل بهم ، وضاق بخصومتهم ذرعاً ، فحدّث عن نفسه فقال :

* * *

لفظتني النوادي ، وجانبني الرفاق ، وضاقت عليّ الارض بما رحبت حتى لا ارى فيهـا الا وجوهاً تملوهـا سيما الغضب ، واصواتاً تملأُها كلمات الشتم

ذهبت الى منزلي فراراً من الناس ، فلم يستقر

بي المقام فيه ، حتى خرجت منــه مَوْهناً ، وكانت ليلة ظلماء ، لا نور فيها ، الا هذه النجوم المتلألئة في سمائها الصافية ، ولا صوت الا صوت قدميّ على بلاط شارع بغداد الذي اسير فيــه مغرّباً ، لا اعرف لي قصداً ولا غاية ، وقد تاه بصري في دجى الليل ، وفكري فيما وراء المادة ...

كدتني اسير الى الصباح ، ما دمت لا افكر في شيء ، وافكر في كل شيء لولا ان استوقفني شعور برهبة اعتراني ، فعادت اليّ نفسي فبصرت ما حولي ، فاذا انا بين يدي الاموات ...

قطعت هذه الأسلاك الشائكة التي تفصل شارع بغداد عن مقبرة الدحداح وتذكر بعهـد

مضى ، كان عهد عز لنـــا وفخراً

ودخلت المقبرة فتمثلت لي شواهدها الماثلة ، اشباحاً مخيفة ، تبيّنت منها عفريتاً برأسين واربعة افواه ، وشيطاناً بلا بطن ولا رقبة ، وجنياً بقرون وانياب ، فملئت رعباً وفزعاً ، وخانتني رجلاي ، فسقطت مكاني ، واحسست بشيء سقط عليــه رأسي فكان له كالوسادة ، وهو قبر مملوء بالشياطين والأبالسة تمدّ اليّ مخالبها ، وتفزعني بانيابها ، وتعبث بي وتسخر مني ، ونياط قلبي تتقطع من الهلع

واحسّ حركة فالتفت فأرى القبر ينشق فيخرج منــه ميت قد فنيت احشاؤه ، وتقطع

كفنه ، و بترت اعضاؤه ، يقترب مني فاجمد في مكاني ، ولا يبقى حياً مني الا سمعي فاسمعه يقول

« ايه ايها الولد الخبيث ! ما انت ونقد الشيوخ واصلاحهم ، وهلاّ اصلحت اخوانك واترابك من الشبان ؟ !

ايها الشرير ، ألا تبصر اخلاقهم ، ألا ترى تقليدهم الغربيين أعميت عن كل هذا ولم يبق محتاجاً الى الاصلاح الاّ الشيوخ ؟ !

ويلك الست تزعم انك من صالحي الشبان ، وانت لا تزيد على فرضك ، وربما تهاونت به ،

وانقصت منه احياناً ، هلاّ عمدت الى نفسك ، فبدأت باصلاحها !..

الويل لك الليلة من انتقامي وبطشي!.

* * *

ويعقد لساني فلا ارد عليه حرفاً ، ويقترب مني ، حتى اذا لم يبق بيني وبينه الا ذراع ، احسُّ حركة ، وارى سحابة كبيرة تمر من فوقنا ، فيلامسه ريحها فيسقط ميتاً ، واغوص في الارض عشرة اذرع

* * *

يذهب عني هـذا الطائر العظيم فاخرج واجول ببصري في المقبرة ، وفوقها ظلمات

بعضها فوق بعض، فارى هذا الجدول المتواضع، المخيف بجريره في ظلمة الليل، يحضن مدينة الموت، كما يحضن قاسيون الشامخ، مدينة الحياة الزاهرة، بانوارها الساطعة ...

واسمع هذه تقول لتلك :

تعاظمي ماشئت، فانك مهما زهوت وازينت، وغرتك الأماني، فاليّ مرجعك ومنقلبك، لا خلاص لك مني، ابتلعك بما فيك فاودعك بطني، واعود فافتح فمي لالتهم فريسة اخرى

* * *

ويعود الطائر فاذا هو الموت، الموت بعينه، هيكل عظمي هائل طول اصبعه الواحدة عشرون

الف كيلٍ من الامتار ، وبيده منجل لو ضرب به كرتنا الارضية لقدَّها نصفين ، وله منظر ، ليس وراءه في الوحشة والبشاعة غاية

ينظر اليَّ فـ . . . أ . م . . . وت . . .

* * *

مرَّت مدة ، الله اعلم بمداها ، ثم صحوت ، فرأيت البلاد تغيرت ومن عليها ، فلم يعد هناك مقبرة ولا بساتين ، بل شارع ضخم على جانبيه القصور الفخمة ، ذات العشرين طبقة ، واهله كلهم يلبسون القبعات واللباس الأوربيَّ ، فعرفت في الحال انني في باريز . . .

اقتربت من احد الناس فقلت له بالافرنسية التي اعرف منها شيئاً :

— « بونجور ، اوّه لو تيل ؟ »

فصعّد فيّ نظره وصوّب ، وتأملني باسماً متهكماً ، ثم سار ولم يرد عليّ شيئاً ، فرجعت الى نفسي فوجدتني غريبـاً في زيي ، وكيف لا يكون غريباً من يلبس الطربوش ، ومن لم يقص شاربيه ، فاسرعت الى حلاق فحلقت ، واشتريت قبّعة ، وخرجت انظر متعجباً ، لا اجرؤ على السؤال عن اسم المدينة ، وعن تاريخ اليوم ، لما لاقيت من الرجل الأول

* * *

وارى شيخاً هماً ، فاتخيل اني اعرفه ، واقرب منه فأجده صديقي فلان ، وقد كانت سنه حينما فارقته خمس عشرة ، فاتعجب من شيخوخته وشيبه ، وانا اكبر منه ولا ازال شاباً ، ولا اعرف بأي لغه اخاطبه فاقول له

— السلام عليكم ، بونجور ، كودمورني

فيرد عليّ بـ : وعليكم السلام ورحمة الله متعجباً من سلامي ، فانتسب له فيعرفني ويهش لي ويقول :

— كيف عدت الينا وقد حسبناك مت منذ (٩٠) سنة

— ان لي لخبراً طويلاً ولكن اخبرني قبل في ايّ سنة نحن الآن

ـــ في السنة ٢٠١٩ ميلادية

ـــ وما هذه المدينة

ـــ عجيب منك الاّ تعرفها ، هي دمشق

ـــ دمشق ؟ ماذا تقول ؟ ارجوك ان لا تهزأبي

ـــ جدّاً اقول انها دمشق

ـــ ومتى كان لدمشق مثل هذا الغنى ، وهذه العظمة والرقيّ ؟ !

ـــ لا تغترما لدمشق منه شيء ، ولكنه شارع الاجانب ، والاجانب تجاراً وصناعاً هم سادة المدينة ، وعظماء اهلها ، ومالكو زمام امورها

ـــ وما ذا فعل اهلها ، فلقد تركتهم على

ابواب نهضة اقتصادية كبرى ، ولقد انشسوا معامل للدباغة والنسج وال...

— آه ، لقد اذكرتني عهداً كنت له ناسياً ، ولا يعرفه ممن ترى غيري ان ما تقوله صحيح ! ولكن ؟ آه عمّ احدثك ؟

هلم هلم ، الى احد المقاهي فانني لا اطيق الوقوف

* * *

وندخل المقهى فتأتينا فتاة كأنها فلقة البدر تسألنا طلبنا ، ويجيبها رفيق بلغة لا ادري ألاتينية هي ، ام هي لغة الصين ، فتنحني قليلا وتنصرف

فاقول له — ما هـذه الفتاة ، وبأي اللغات تكلمها ؟

— انك قد قطعت عليّ حديثي الأول ولكني مخبرك عن سؤالك ، ليس من كلمت بفتاة ، ولكنه شاب

— شاب ؟ شاب ؟ وما هذا الشعر الطويل ؟ وما هذه الثياب القصيرة وما هذه الاصبغة ؟ وما هذا الكحل ؟ ما هـذا الجمال الرائع ؟

— نعم يا سيدي ، انه شاب ، وهكذا كل الشبـان اليوم ، ولا يعرفون الا التجمل والرقة ، اما الاعمال الكبرى والمشروعات العظيمة فكلها بيد المرأة !

— ماذا تقول ابدّلت الارض غير الارض والسموات ؟ ام قامت الساعة ؟ ام طلعت الشمس من مغربها ؟ ام ماذا ؟

— ان شيئاً من ذلك لم يكن ، ولكنّ هذه (الموضة) التي بدأت في زمانكم بحلق شاربي الرجل ، وشعر المرأة ، وحضورها في الكليات وعقدها المجامع واشتغاله بالزينة وعكوفه عليها قد جرنا الى ماترى ، وما خفي عنك اعظم

واما هـذه اللغة فما هي الا خليط من اللغة العامية واللغات الاجنبية ، واما الفصحى فلم يعد يعرفها الآ المنقطعون لدراستها وقليل ما هم ولا تعجب فإن مما قضى على اللغة كلية السوء

التي انشئت في زمنك وسميت كلية الآداب وما فيها من الادب العربي الا ظله وليت الظل لم يكن ممسوخاً ايضاً !!

ودعني اتم لك حديثي الأول

ان هذه النهضة الاقتصادية ، التي بدأت في زمنك والتي سارت سيراً حسناً ، حينما اقبل الطلاب على مساعدتها ، لم تلبث ان ركد ريحها ، وتقاربت خطاها ، لانقطاع الناس عن مساعدتها ، ومثابرتهم على شراء البضائع الاجنبية فضعفت ثم اضمحلت فلم يبق لها أثر ، وخلا الجو (لقبّرة) اوربا ، ولكن لا صائد لها

***

وهناجاءت اوجاء الكارسون بقدحين من الخمر

فقلت — خمر ؟ أأنا اشرب الخمر ؟ !

— مهلاً ياأخي ، فما في المدينة شراب سواه ،
وان هذه الحانات التي كانت في زقاق رامي « الذي
يرى اليوم في خارطات دمشق الأثرية » واهمال
الحكومة امر اغلاقها،وتحريم تعاطي مافيها ، كمافعلت
اميركا قدسبب لناهذا البلاء العام ، والشر المستطير

— ولكني لا اشربه

— ولماذا ؟

— عجيب ! اليس بحرام

— حرام ؟ قه قه قه ، مابقي من يقول حرام
وحلال

— ولماذا ، وهل ذهب الدين ؟

—اليس لك بذهابه علم ، هاك المسجد الأمـويـ ، لايدخل اليـه الا المتفرجون ، لاالمصلون

ولا تعجب من هذا ، فانك تعرف ان شبان زمانك كانوا يتهاونون باموز الدين، ويتغافلون عنها ، وسار اولادهم في طريقهم ، فنشأ هذا النشء الذي لا يعرف من الدين ولا الاسم

* * *

وطلب اليَّ صديقي ان اقوم معه لندور فـي المدينة فامتطينا سيارة ، فرأيت ميداناً عظيماً فيه تمثال ، فقلت له :

— تمثال من هذا ؟

— ليس تمثالاً لبشر، ولكنه تمثال الحرية

— وما تمثال الحرية ؟

— هو

وهنا صدمتنا سيارة اخرى، فصحت وارأساه.

ففتح عليّ الباب ، وأفقت فاذا انا في الفراش

واذا هي دمشق لاباريز ، وسنة ١٩٢٩

لاسنة ٢٠١٩ لاشوارع ولا بنايات ، ولا تماثيل

ولاحـ ... ، ولاتهتك ولاالحاد ، واذا كل مارأيت

رؤيا منام ، واضغاث احلام.

كلية الآداب

ذكر ذلك الخبيث كلية الآداب فكان حقاً علينا أن نقول كلمة لنا فيها

لسنا من الحمق بحيث نطلب من هذه الكلية وهي طفلة ما لا يقدر عليه الا الرجال ، اذ انه لا يبلغ شيء اشده في يوم واحد ؛ ولا يكون الرجل رجلاً حتى يكون طفلاً

ولكنّ اعترافنا بهذا وتسليمنا به لا يعقد السنتنا عن ان نبين لهذه الكلية مآخذ لنا عليها ، إلاّ تكن حقاً فانها لا تنافي الحق :

١ — اهمالها امر الآداب العربية

ورب قائل : هي لم تهمله بل فعلت وفعلت ، ولكننا نردقوله بان مافعلته هوالاهمال بعينه ، ودراسة الادب العربي لاتكون بشاعرين او ثلاثة ، بل بالوقوف على جاهليته واسلامه ، و كتبه ورواته وحفاظه وثقاته فهل من هذا شيء في هذه الكلية ؟ لا واذن فلا غناء فيما يدرس منه فيها ، مادام مبدوءاً بعضده قبل رأسه ومأتيًا من ظهره لامن بابه

٢ — ادعاؤها غير ولدها

واعني بهذا فتحها بابها على مصراعيه للموظفين وغير الموظفين ممن لايحمل شهادة تؤهله لدخولها وماشدا من الادب شيئاً يعينه على فهم دروسها . . .

كأن الجاهل لا يكون جاهلاً حقـاً حتى يضم الى جهله لقب ليسـاً نسيه في الا داب !!

٣ — وكان يجب ان اذكر هنـا مايؤخذ على المدرسين .. ولكني ادعه لله

* * *

واذكر بهذه المناسبة ان لكلية الآداب في الجامعة المصرية اقساماً ستة لاغنى لكل كلية راقية عن مثلها فلو كان في كليتنا شيء من الدروس الاخرى اللازمة لنمائها ورقيها ، والتي تقوم مقام البدرة لهـذه الاقسام ، كالفلسفة والتاريخ ، وثقنا ببلوغها عما قريب غاية صالحة ، ولكن

وهذه اقسام كلية الآداب المصرية

١ — قسم العربية واللغات السامية

٢ — 〃 اللغات الحية

٣ — 〃 الفلسفة

٤ — 〃 المصريات (الآثار واللغة المصرية القديمة) = الايجيبتولوجيا

٥ — 〃 التاريخ والجغرافيا

٦ — 〃 اليونانية واللاتينية

ولكل واحد من هذه الاقسام صف احضاري مدته سنتان فاذا اكمله الطالب دخل في القسم فحاز الليسانس بعد ثلاث سنوات ثم الدكتوراه في سنة فيكون مجموع سني الكلية ست ...

ولا بد للدخول فيها من الحصول على البكالوريا المصرية في الآداب او مايعادلها ، ومن دراسة عامين في القسم الاحضاري ...

وما القسم الاحضاري الا محاضرات في الثقافة العامة ، والآداب ، تختلف باختلاف القسم الذي تحضر الطالب له ، يلقيها كبار الاساتذة الشرقيين كالدكتورطه والدكتورمنصور والاستاذ عزام والمستشرقين كالاستاذ لالاند (رئيس قسم الفلسفة واكبر اساتذة السوربون) ونلّينو (من كبار المستشرقين واساتذة جامعة روما) وانجلوجويدى ...

ويعطي الواحد من هؤلاء راتباً شهرياً يزيد

على الثلاثمئة جنيه مصري ، وبمثل هذا — لا بمثل فعل كليتنا — يكون الرقيّ والتقدم ...

* * *

وما ادري ماهو عذر المعارف في اخراجها الفلسفة والتاريخ من دروس الكلية مع ان لديها مدرسين لهما يحملون شهادات الاخصاء فيهما

اذا كان هذا العذر هو الضعف المالي فلسنا عنه براضين لأن كلية لاتقوم على لاشيء وخير لهم اذن لو اجلوا افتتاحها الى ان يغنيهم الله من فضله ... وان كان غيره فنحن عن قبوله أبعد ...

* * *

ثم مايكون حظ خريج هذه الكلية من الأدب

العربي؟ وهو يدرسه على غير سنة سننه ويأتيه من غير طريقه ، ويأخذه مختلفاً متناقضاً ، يحمله احد المدرسين كرهاً على خطة أدب الغرب ، ويعيده الآخر الى عشه الذي منه درج فلا يبنى هذا الا ليهدم ذاك ، ولا يزال الطالب بين الهدم والبناء حتى يخرج من الكلية وما ازداد فيها الا انه حصل الادب مضطرباً ، وتكلم فيه جهلاً ... ؟!

***

واعوذ بالله ان اخصّ بكلمتي هذه استاذاً بعينه او أناساً بذاتهم ، لأني ـ واني لصادق ـ احترمهم واجلّ اقدارهم جميعاً

* * *

ولكنّ هذه ملاحظات قد تكون وجيهة ، فتدارك من اول الأمر ، وقد لا تكون فلا يرد على صاحبها ومن هو حتى يرد عليه ؟! ... والسلام

ملاحظة : اشرف على تصحيح هذه الرسالة اخ لي صغير فوقع فيها — وخاصة في مقدمتها — اخطاء يتفهمها القاريء من نفسه ..